السياسة الضريبية للبابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) تجاه الأراضي الانجليزية

صفاء محمد صديق خليل (*)

يعود تاريخ الضرائب التي قامت البابوية بفرضها على أراضي العالم المسيحي الكاثوليكي إلى عهدٍ بعيد، فلم يكن من الممكن بالنسبة للحكام الاستخفاف بالأوامر الصادرة من البابوية في روما، خاصة فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية، وفي مقدمتها الأوامر المتعلقة بفرض الضرائب وذلك خوفا من أن تقوم البابوية بعزلهم أو حرمانهم كنسيًا؛ وهو ما يُفقد حكمهم الشرعية، التي تسدلها عليهم البابوية، باعترافها بهم كحكام وملوك على الأراضي الخاضعة لسلطانهم. كل ذلك كان من شأنه زيادة النفوذ السياسي والاقتصادي للبابوية في روما على العالم المسيحي الكاثوليكي عامة وعلى الأراضي الأوروبية بصفة خاصة، حيث تعددت العوامل التي ساعدت على عدم معارضة الحكام لما تفرضه البابوية من ضرائب على شعوبهم، والتي يأتي في مقدمتها ما يلي:

أولاً: رغبة الحكام في توطيد دعائم حكمهم واضفاء الشرعية عليه باعتراف الكنيسة الكاثوليكية بسلطاتهم وشرعية حكمهم؛ ويتضح ذلك بصورة كبيرة في الخضوع والاذعان اللذين أبداهما الملك الانجليزي جون (١١٩٩ - ١٢١٦م)John بعد سلسلة الأحداث التي وقعت في مملكته عام ١٢١٣م(١)، مما

(*) المعيدة بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

هذا البحث جزء من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة بعنوان: البابا إنوسنت الرابع وسياسته الخارجية (١٢٤٣-١٢٥٤م). بإشراف أ.د. صلاح محمد ضبيع – كلية الآداب- جامعة سوهاج & د. أسامة إبراهيم حسيب – كلية الآداب- جامعة سوهاج.

(١) تعرض الملك الانجليزي جون خلال هذه الفترة لخطرين يتمثلان في مواجهة عقوبة اللعنة والعزل من البابا نتيجة للصراع الذي قام بين الملك والبابا الذي أراد نزع حق تولية الأساقفة من الملك وجعلها بيديه، والخطر الثاني تمثل في تهديد الملك الفرنسي بغزو الأراضي الانجليزية، إلي جانب الخلاف الذي اندلع بين الملك جون واللوردات الإنجليز، مما اضطر الملك الانجليزي جون أن يذعن للبابا إنوسنت الثالث دون قيد أو شرط، حيث وافق على حكم انجلترا وإيرلندا كإقطاع من البابا وتقديم فروض الطاعة للمبعوث البابوي حيث ضمَّن الملك جون اقتراحه والإذعان للبابا في صيغة مرسوم ملكي تم الإعلان عنه في ١٥ مايو عام ١٢١٣م، للمزيد انظر :

Morgan. A. S: The History Of Parliamentary Taxation in England, (New York, 1911), pp. 57-58;Theilen, M., K., : Opposition To Papal Taxation in England Under Innocent IV, , Master Degree,(university of Illinois, 1914) ,pp.1- 3; David McDowall: An Illustrated History of Britain, Twenty-first impression,(England, 2006), p. 28.

أدى إلى نزع تاجه عنه، وهنا تدخلت البابوية حيث استطاع البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ -١٢١٦م) Innocent III أن يُعيد إليه تاجه مرة أخرى، كما قام بمنحه ضمانًا بتقديم الحماية البابوية إليه في حال احتياجه لها، وهوما حمله على الموافقة على دفع إتاوة سنوية للبابا مقدارها ألف مارك[١] Mark، منها سبعمائة مارك عن انجلترا وثلاثمائة مارك عن أيرلندا[٢] ترسل للبلاط الروماني[٣] ، وفي هذا الاطار أيضًا، وفي محاولة الحكام تدعيم سلطانهم فقد قام بعضهم بتقديم منح وهدايا سنوية إلى البابوية، حيث تحولت هذه الهبات والهدايا فيما بعد إلى واجب أصبح يُطالب به البابا كحق لا سبيل إلى اسقاطه أو التنازل عنه، ومن ذلك التزام المملكة الانجليزية بتقديم ضريبة سنوية إلى البابا عُرفت باسم " بنس بيتر"[٤]، أضف إلى ذلك أن محاولة الحكام ايجاد قدر من الاستقلالية

- زينب عبدالمجيد عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية في الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م، الطبعة الأولي (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٦٨ – ٧٥؛ موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطي، ترجمة- علي السيد علي، الطبعة الأولي، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٦٩-٧٠.

(١) المارك وحدة نقدية إنجليزية قديمة، تعادل ١٣ شلنا و٤ بنسات، وتزن حوالي ثماني أوقيات أو ما يعادل ٢٢٦،٨ أو ٢٤٨،٨ جراما.

أسامة إبراهيم حسيب: تقييم الضرائب الطارئة في انجلترا في عهد هنري الثالث ١٢١٦-١٢٧٢م، مجلة التاريخ والمستقبل، المنيا، يناير ٢٠١٢م، ص٢٥٧.

(٢) أيرلندا، جزيرة تقع إلى الغرب من بريطانيا، تمثل ثاني أكبر جزيرة في الجزر البريطانية، وهي الآن مقسمة إلى دولة إيرلندا الحرة، وإيرلندا الشمالية التابعة للمملكة المتحدة، للمزيد أنظر:

Chronicles Of England, Scotland And Ireland, Vol. VI, Ed. By, Holinshed's, (London, 1808), p. 1;

ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، جـ٤، م٤، الكتاب الخامس المسيحية في عنفوانها (١٠٩٥-١٣٠٠)، (بيروت، د.ت)، ص٦٩؛ محمد خميس الزوكه، جغرافية أوروبا الاقليمية، الاسكندرية ١٩٩٧، ص٣٠٧.

(3) Annales Monastici, Vol. IV, Ed. By. Henry Richards Luard, (London, 1869), p. 57. Cf. also, Sir James Mackintosh: The History Of England From The Earliest Times, To The Year 1588, (Philadelphia, 1834), P. 94.

(٤) تعود هذه الضريبة إلي العصور الأنجلوسكسونية ، حيث تجسدت قوة العلاقة بين الملكية الأنجلوسكسونية والبابوية في دفع إتاوة سنوية للبابوية تتمثل فيما اصطلح على تسميته "بنس القديس بطرس Peter" أو بنس بيتر، حيث كانت هذه الإتاوة هي أول خضوع من الملوك الأنجلوسكسون، تعبيرًا عن الاعتراف بخضوع المملكة للبابوية، ويتم دفع هذه الهبة في يوم عيد القديس بطرس ٢٩ يونيو/ حزيران، وتمثل جانبًا مهمًا من الإيرادات الكنسية، حيث يتم دفع بنس واحد عن كل نسمة في المملكة الانجليزية، وقد نص القانون آنذاك على أن الذي يخفق في دفع هذه الضريبة في الوقت المحدد فعليه أن يذهب إلى روما ويدفع بنفسه بالإضافة إلى دفع الملك لغرامة كبيرة في حالة عدم ارسال إيرادات هذه الهبة إلى البابوية. للمزيد أنظر:

عن النفوذ البابوي كان يعرضهم لغضب البابا واتخاذه اجراءات معادية، من ذلك ما قام به البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) Gregory IX من اصدار قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، الذي امتنع عن أداء الضرائب المفروضة من قبل البابوية على أراضي إمبراطوريته.

ثانيًا: رغبة الملوك والحكام في الحصول على امتيازات من البابوية أو قبولها لفرضهم ضرائب جديدة على شعوبهم، كما حدث في الأراضي الفرنسية حيث وافق الملك لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠م)Louis IX على طلب البابوية المتعلق بفرض ضرائب جديدة لصالحها، وذلك في مقابل موافقة البابوية له على فرضه ضريبة على بلاده، وكذلك تقديم الدعم والمساندة والدعاية له، وذلك في إطار المساهمة في تجهيز حملته العسكرية الصليبية على الأراضي المصرية فيما يُعرف تاريخيًا باسم الحملة الصليبية السابعة(١).

ثالثا: الحاجة إلى جمع المال من أجل توفير المناصب، يتضح ذلك من طلب الملك الانجليزي هنري بتوفير مناصب معينة، فقام البابا بإرسال خطابات إلى الرعايا الانجليز يدعوهم فيها إلى الاستسلام للضرائب التي فرضها الملك عليهم، مما حدا بالملك الانجليزي إلى التساهل و السماح لرسل البابا لجمع وتحصيل المزيد من الأموال.

اضافة إلى ما سبق فقد كان للبابوية في روما العديد من الأسباب والحجج التي حدت بها إلى فرض المزيد من الضرائب على رعاياها الكاثوليك ، والتي كان من أهمها ما يلي:

أولا- مواجهة تهديدات الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني للبابوية ولأراضي شمال إيطاليا التابعة للحكم البابوي؛ فقد كانت مواجهة هذه التهديدات الناجمة عن الخلافات القائمة بين البابوية من جهة والإمبراطور فريدريك الثاني من جهة أخرى، وحاجة البابوية إلى المال لدعمها في مواجهتها لتهديدات الإمبراطور لها من أهم – إن لم تكن في مقدمة – الأسباب التي حدت بالبابوية إلى فرض المزيد من الضرائب على رعاياها.

ثانيًا- حاجة البابوية إلى المال في دعم الحروب الصليبية التي قادتها ضد الشرق الإسلامي في محاولة منها السيطرة علي الأراضي المقدسة من المسلمين في فلسطين والحصول عليها لصالح البابوية، التي كانت دائمًا هي الداعية والراعية والداعم الأكبر لهذه الحروب، فدائمًا كان يدَّعي البابا الكاثوليكي وبلاطه

Theilen, M., K., : Op.Cit, pp. 1-3; Whitelock : The Beginning of English Society (The Anglo – Saxon period), (Penguim Books, 1959), p. 167.

(1)Les Registers D' Innocent IV, Publiés ou Analysés D' Apres Les Manuscrits Originaux Du Vatican Et De La Bibliothéque Nathional, by. Élie Berger, Tome, II, (Paris, 1887), PP. CXXXIV-CXXXV.

الروماني أن من أهم الأهداف التي تستوجب جمع المزيد من الأموال، وفرض الضرائب لصالح الخزانة البابوية يتمثل في المساهمة في تحقيق صالح العالم المسيحي، المتمثل في فرض السيطرة البابوية على الأراضي المقدسة في فلسطين وانتزاعها من أيدي المسلمين الغاصبين لها (من وجهة نظره).

ثالثا- رغبة البابوية في فرض سيطرتها وسلطانها فيما يتعلق بالأمور الدنيوية ومنازعة الحكام العلمانيين ودعم الخزينة البابوية بالأموال التي يمكن استعمالها في منفعة البابا، وهو ما يؤكد أن الدعوة للحروب الصليبية لم يكن سوى سبب ظاهري يخفي وراءه أطماع البابا في جمع المال.

هذا فيما يتعلق بالأسباب التي دعت البابوية إلى فرض الضرائب وعدم ممانعة الحكام لذلك؛ حيث كانت الضرائب تمثل آنذاك إحدى أهم الموارد المالية للبابوية التي كانت في حاجة إلى المال من أجل سد مطالبها والوفاء بمظاهرها.

السياسة الضريبية للبابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) تجاه الأراضي الانجليزية:-

استمر البابا إنوسنت الرابع Innocent IV في تحصيل الضرائب التي فرضها أسلافه على الأراضي الانجليزية، حيث كانت الضرائب تمثل أحد الجوانب الثلاثة لتحصيل المال من الأراضي الانجليزية بجانب الإتاوة السنوية التي التزمت المملكة بدفعها منذ عهد الملك جون، وكذلك في بنس[1] بيتر، الذي التزمت المملكة بتقديمه منذ العهد الانجلوسكسوني[2]، إلا أنه في عام ١٢٤٤م، قام البابا بإرسال أحد مندوبية إلى الأراضي الانجليزية من أجل جمع وتحصيل المزيد من الأموال، فيما عُرف بـ بعثة السيد مارتن Master Martin، الذي كان من أهم رجال الدين الكاثوليك المقربين من البابا، حيث زوده البابا بالعديد من السلطات، التي لم يسبق لأي نائب بابوي قبله أن حظى بها، حيث دعمه بإطلاق يده في فرض الرسوم والإتاوات، وذلك من أجل إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من الديون

(1) البنس :Penny هو العملة المهمة في انجلترا، ويزن حوالي جرامين من الفضة، أما الشلن Shiling فيساوي ١٢ بنس، أما الجنية Pound اقل العملات قيمة في الدائرة النقدية في تلك الحقبة. انظر:
هنري بيرين: تاريخ اوروبا في العصور الوسطي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة عطية القوصي، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦)، ص١٠٧؛ أسامة حسيب: المرجع السابق، ص٢٦٣.

(2) Keightley. T, Smith. J. T: The History Of England, Vol. I, (Boston, 1840), pp. 136-137; Theilen, M., K., : Opposition To Papal Taxation in England Under Innocent IV, pp.1- 3.

الملقاة على عاتقها[١]. توجه السيد مارتن في البداية إلى الملك هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢م)Henery III راجيًا منه دعم جهوده الهادفة إلى إقناع الأساقفة الانجليز؛ للحصول على موافقتهم بشأن إرسال ضريبة إلى البابا تقدر بعشرة آلاف مارك، إلا أن الملك الانجليزي أوضح للمبعوث البابوي أن الأساقفة ورجال الدين والبارونات والفرسان لم يعد باستطاعتهم تقديم المزيد من الضرائب؛ نتيجة للضرائب التي فرضت عليهم في السابق؛ لدعم الجهود في حماية أراضي المملكة الانجليزية، فأجاب الملك علي المبعوث البابوي بقوله: " إنهم -أي الأساقفة ورجال الدين والبارونات والفرسان لم يعد باستطاعتهم دفع شيء، حتى لي أنا ملكهم، ولا للبابا، فقد قمت بالتساهل معهم في سبيل الحصول على مساعدة مالية منهم، غير أنهم أجابوني على ذلك بلطف واعدين ببذل ما يستطيعون في حدود امكانياتهم "[٢]. ونتيجة لهذا الرد غير المريح للمندوب البابوي، لم يجد بُدًا من التوجه إلى الأساقفة ورؤساء الكنائس هادفا من خلال الاجتماع بهم إلى إقناعهم بالموافقة على مطالب البابوية، حيث قدم لهم الرسائل الرسولية الموجهة من البابا إليهم داعيًا إياهم إلي الموافقة على ما يطلبه منهم من ضرائب موضحًا لهم حاجة الكنيسة الكاثوليكية لذلك، حيث خاطبهم البابا من خلال هذه الرسائل بقوله: " لنا آمالٌ كبيرة في عواطفكم الصادقة ونشعر بثقة كبيرة أنه عندما تداهم الحاجة الكرسي الرسولي، فإننا - وبكل ثقة - لا نجد مناصًا من اللجوء إليكم، أنتم أبناء الكنيسة المخلصين والمتلهفين إلى تخليصها من نير الأعباء الملقاة على عاتقها، ولأن الكرسي الرسولي غير قادر على تخليص نفسه من أعباء الديون التي أثقل بها كاهله، وذلك من أجل الدفاع عن الإيمان "[٣].

ومن خلال قراءة هذه الرسالة الموجهة من البابا إلى رجال الكنيسة الانجليزية تتضح المحاولات المستميتة من البابا، الذي اجتهد من خلالها في

(١) متى الباريسي، التاريخ الكبير ١٢٣٥ - ١٢٧٣م، ترجمة: سهيل زكار؛ جـ ٤٠، (دمشق، ٢٠٠١م) ص٦٩٠؛

Foxe. J: The Church Historians Of England, Reformation Period. The Acts and Monuments of John Foxe , Vole, II, Part 1, (1854), p. 431.Cf. also, Tout. T.F: The History of England From The Accession of Henry III To The Death of Edward III (1216-1377), London- New York, 1905, p. 66, Theilen : OP. Cit, p. 9.

(٢) متى الباريسي: مصدر سابق، ص ٦٩١؛

Theilen : OP. Cit, pp.10- 11.

(٣) متى الباريسي: مصدر سابق ، ص٦٩١-٦٩٢؛

Theilen : OP. Cit, p. 11.

استعطاف رعاياه الانجليز لحملهم على الموافقة على مطالبه الهادفة إلى تخليص الكنيسة من أعباء الديون التي أثقلت كاهلها.

ومع انتشار وتداول هذه الرسالة في العاصمة الانجليزية لندن، وجد الأساقفة ورعاة الأديرة الإنجليزية أنفسهم في موقف حرج جدًا، فما يطلبه منهم البابا الآن ، هو ذاته ما طلبه منهم ملكهم فيما مضى. ولأن الثاني قد طلب منهم المال من أجل حماية المملكة والدفاع عنها، فإن الأول يطالبهم هو الآخر بالمال؛ من أجل الحفاظ على البابوية، والدفاع عنها، ودرء الأخطار المحدقة بها وهو ما يجعل طلب البابا المساعدة منهم يبدو وجيهًا ومن الصعب رده، إلا أنهم قرروا رفض طلب البابا ؛ فمن وجهة نظرهم أن مساعدتهم للملك الانجليزي سوف تُقابل بالمكافأة من قبل الملك واعترافه بالجميل لهم، وهو ما لن تقدمه لهم البابوية، التي تعتبر أن مساعدتها واجب عليهم وليس جميلًا تعترف به لهم، حيث قاموا بالرد على هذا الموقف بقولهم: " لقد تم وضعنا في موقف حرج، فملكنا وحامينا غير قادر على فعل شيء، وقد سبق أن طلب منا المساعدة في سبيل حماية المملكة والدفاع عنها، والآن يطلب البابا الشيء نفسه، غير أن طلب الملك جدير أكثر بالموافقة عليه، فمن الملك نتوقع بعض المكافأة، أما البابا فلا شيء يُرجَى منه"[١].

في هذه الأثناء، وبينما كان الشعب الانجليزي في حيرة من أمره فيما يتعلق بشأن رسالة البابا إليهم، وصل إلى لندن السيد " وولتري أوكرا" **Wwalter Okra**، مندوبًا من قبل الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، إلى الملك الإنجليزي ومستشارية؛ لإيصالهم رسالة من قبل الإمبراطور سعي من خلالها تبرئة نفسه مما أسنده البابا إليه من اتهامات بالعصيان للكنيسة الكاثوليكية مؤكدًا التزامه التام بإقامة العدالة وإطاعة أوامر الكنيسة، وفي نفس الرسالة توجه الإمبراطور إلى الملك والشعب الانجليزي يحثهما على عدم إرسال أية مساعدات للبابوية ، مهددًا ومتوعدًا في نهاية رسالته بأن ما سيتم ارساله للبابا من مساعدات سوف يتم ضمه إلى الخزانة الإمبراطورية[٢] كذلك توجه من خلال هذه الرسالة إلى الملك الانجليزي بأن عليه أن يُخلّص مملكته وشعبه من الأعباء الضريبية التي فرضتها عليهم البابوية منذ عهد البابا إنوسنت الثالث، كما توعده بملاحقة الرعايا الانجليز، والحاق الضرر بهم في جميع أرجاء إمبراطوريته إذا لم يذعن الملك الانجليزي لمطالبه[٣].

---

(3) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٣؛ Theilen : OP. Cit, pp. 12-13.

(٢) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٣-٦٩٤؛

AllShorn. L: Stupor Mundi The Life Times Of Frederick II Emperor Of The Romans King Of Sicily And Jerusalem 1194-1250, First Published, (London, 1912), P. 219; Theilen : OP.Cit, p.12.

(٣) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٤؛ AllShorn: Op. Cit, P. 219.

ومما سبق يتضح مدى اهتمام الإمبراطور الألماني بتجميد، ومنع وصول أية مساعدات من شأنها دعم موقف البابوية المعارض له، متخذًا من الظروف المادية التي تعاني منها المملكة الانجليزية درعًا يحول دون تحقيق طموحات البابوية في الحصول على ضرائب تساندها في مواجهة الإمبراطور، حيث يتضح ذلك بجلاء في التهديد الذي ذيَّل به الإمبراطور رسالته إلى الملك الانجليزي وتلاعبه على أوتار قلوب الشعب الانجليزي الذي وجهه إلى ضرورة أن يُسقط عنهم ملكهم ما حملتهم البابوية من أعباء ضريبية لطالما أرهقتهم ولطالما عجزوا فيما مضى عن تأدية الكثير منها إلا بشق الأنفس.

كما يتضح من خلال تواجد المندوب الإمبراطوري بالمملكة الانجليزية، والرسالة التي حملها إلى الملك الانجليزي وشعبه مدى متابعة الإمبراطور للأحداث بالقارة الأوروبية ومدى اهتمامه بشئون البابوية ومراسلاتها إلى الملوك والحكام، في محاولة منه لتقويض أية جهود من شأنها أن تدعم الموقف البابوي المعادي له.

وتحت ضغط تهديدات الإمبراطور فريدريك الثاني من جهة والموقف المالي السيء الذي كانت تعانيه المملكة الانجليزية من جهة أخرى، وحاجة المملكة إلى المال في سبيل القيام بأعباء حمايتها والدفاع عنها من جهة ثالثة، تمحور موقف النبلاء والأساقفة حول قبولهم مساعدة الملك هنري الثالث، وفي الوقت نفسه رفض طلب البابا. غير أن المندوب البابوي "مارتن" عندما علم بقبول النبلاء والأساقفة تقديم المساعدة للملك فقد حاول جاهدًا الحصول على موافقة مماثلة منهم لتقديم المساعدة للبابا والكنيسة الرومانية [١]، فدعاهم للاجتماع معه، وقال لهم في الاجتماع: " أيها الناس، أيها الرهبان، ويا أيها السادة، المحبوبين من الكنيسة الرومانية...، ما هو الجواب الذي أعطيتموه إلي أبيكم الروحي بالنسبة لقضايا الكنيسة الرومانية....، لقد أقدمتم طائعين علي الاستجابة لأبيكم الدنيوي، أي مولاكم الملك، فلا سمح الرب أن لا تقدموا يد المساعدة إلي أبيكم الروحي (أي البابا)، الذي يضع ثقته بكم، والذي يقاتل لصالح الكنيسة ضد أولادة العصاة"[٢]. وقد قدر الأساقفة كلامه بالناعم والمعسول؛ وذلك من أجل تحقيق ما يهدف إليه من مساعدات ماليه، فجاء ردهم علي مطالبه بقولهم: " يا صاحب النعمة، إن أساقفة انجلترا يرجون التقدم لكم بالجواب، حول قضية تقديم المساعدات المالية إلي البابا، وأيضًا الموارد التي يطلبها صاحب القداسة من خلالكم من كل كنيسة انجليزية....، فإنه بما أن الملك اضطر إلي الغياب بسبب المرض، وكذلك غياب بعض رؤساء الأساقفة والأساقفة الأخرين، فإنه يتوجب

(١) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٦؛
Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P.431. Cf. also, Theilen : OP.Cit, p.13.
(٢) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٦-٦٩٧.

علينا عدم إعطاء جواب، لأننا إذا قمنا بالرد، فيكون ذلك مضرًا بالنسبة للذين هم غياب"[١]. وبذلك الرد رفض النبلاء والأساقفة تقديم المساعدة المالية للبابا، ولكن بصورة دبلوماسية.

وفي تلك الأثناء، ذهب جون مارشال John Mariscal وبعض الرسل الأخرين من قبل الملك هنري الثالث إلي الأساقفة الذين لديهم بارونيات (إقطاعيات) من الملك، يمنعونهم من رهن إقطاعياتهم المدنية للكنيسة الرومانية؛ لأنهم يدينون بها للملك وحده[٢]، وعندما نمت تلك الأخبار إلي مسامع السيد مارتن حاول مسرعًا الحصول علي موافقة من الانجليز بالمساعدة المالية المطلوبة، لكنهم عارضوا وبشدة أكثر من ذي قبل قائلين: "إنه في المقام الأول، بسبب فقر ملك انجلترا من جراء الحرب، فإن وضع البلاد لا يسمح لنا بالموافقة علي هذا الاستخراج (أي المساهمة المالية)؛ لأن المخاطر تهدد المملكة كلها...، وعندما تم الإسهام مؤخرًا بناءً علي طلب النائب البابوي السابق، لقد فرض وقتها علينا عبئًا ثقيل، ومع ذلك فإن تلك الإسهامات لم تستخدم لمنفعة أو صالح الكنيسة، وهناك خوفا أكبر، بأنه إذا تم الإسهام الآن، أن يصبح عادة يُطالب بها الانجليز...، وحسبما روي بأن البابا مقبل علي عقد مجمع مسكوني خلال وقت قريب، وفيه وبدون شك سوف تفرض ضريبة أخري "[٣]. كما أضافوا إلي ذلك بأنهم يخشون تهديدات الإمبراطور فريدريك الثاني، إذا قدموا المساهمة للبابا[٤].

وإزاء ذلك الرفض قام السيد مارتن؛ من أجل الحصول على المال لصالح البابوية، بوضع يده على مصادر الدخل للكنائس الشاغرة في انجلترا، حيث أعطى مصادر دخل كنيسة ساليسبيري[٥] Salisbury لابن أخ البابا، كذلك قام بالتحدث إلى الناس وإجبارهم على تقديم الهدايا النفيسة له مهددًا إياهم بالحرمان الكنسي في حالة عدم تقديمهم المزيد من المال والهدايا للكنيسة، ويبدو أن مارتن قام بأفعال أبشع من ذلك؛ من أجل تحقيق الهدف الذي جاء من أجله ولكن متي الباريسي فضل الصمت وعدم الحديث أكثر من ذلك؛ احتراما للكنيسة الرومانية،

---

(١) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٧؛ Theilen : OP.Cit, p. 13.

(٢) متى الباريسي: مصدر سابق ، ص٦٩٧-٦٩٨؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P.431.

(٣) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٨؛ Theilen : OP.Cit, p. 13.

(4)Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P.431.

(٥) كنيسة سالسبيري: تأسست الكاتدرائية في مدينة سالسبيري الإنجليزية، التي تقع علي نهر أفون The Avon River، تم وضع حجر اساس الكاتدرائية في أبريل عام ١٢٢٠م، وشيدت علي منطقة مرتفعة، تتميز الكاتدرائية، بأنها واحدة من الأمثلة البارزة في العمارة الإنجليزية . للمزيد انظر:

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser, (New York, 2007), p. 1134.

يقصد عدم إثارة فضيحة[١]. مما يشير بمدى المعاناة التي لحقت بالشعب الإنجليزي من جراء تصرفات المندوب البابوي معهم.

وإزاء هذه الأوضاع وتطور الأحداث بانجلترا، ففي البداية آثر الملك الانجليزي هنري الثالث الصمت، وتجميد موقفه في هذه الأزمة محاولا أن يكون على مسافة متساوية من كل الأطراف فلم يشأ أن يعارض البابا جهارًا أملًا في الحصول على بعض الامتيازات منه، كما أنه لم يعلن تأييده للبابوية خشية أن يتسبب ذلك في خلق مشاكل داخلية بمملكته[٢]، حيث جاء رده إزاء الادعاءات والمطالب المالية بقوله: " إنني لا أرغب ولا أجرؤ علي معارضة قداسة البابا في أي شيء "[٣]. ولكن إذا كان الملك لم يجرؤ علي الوقوف في وجه الطمع البابوي بسبب العلاقة التي تربط المملكة بالبابوية، فهل كان لشعب المملكة موقف مماثل أم لا؟ لم تلبس أن سادت المملكة موجه عارمة من الاستياء لتلك الابتزازات المالية للبابوية؛ حيث طالب البارونات بضرورة توظيف الأموال التي يتم جبايتها في خدمة الأهداف التي تؤخذ من أجلها أي في خدمة المسيحية وليس البابوية[٤]. كما قام بعض النبلاء باتخاذ عدد من المواقف الفردية تمثلت في مراقبة الموانئ والمرافئ البحرية لمنع رسل البابا من الوصول إلى الأراضي الانجليزية[٥]، وهو ما حدث بالفعل فمع وصول رسول من قبل البابا في عام ١٢٤٥م إلى ميناء دوفرDover[٦] الإنجليزي تم القبض عليه ومصادرة ما

(١) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٦٩٩؛

Theilen : OP.Cit, pp. 13-14 ;Thomas Gaspey: The History Of England From The Text Of Hume and Smollett To The Heign Of George The Third; and Thence Continued To Include The Restoration Of The Empire in France – The Death Of The Duke Of Willin Gton, Vol. 1, (London, 1949), pp. 269-271.

(2)Mary.I. M. Bell, A Short History of The Papacy, Methuen & Co. LTD, (London,1921), p. 178.

(3)Abulafia. D: Fredrick II A Medieval Emperor, (New York, 1988), p.383.

(4) Davis.H.W.C: England Under The Normans And Angevins 1066-1272, (London, 1930), P. 435.

(5)Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P.431. Cf. also, Theilen : OP.Cit, p. 14; Davis: Op.Cit, p. 435.

(٦) دوفر :(Dover) مدينة وميناء مهم يقع في الجنوب الشرقي من انجلترا في مقاطعة كنت (Kent).تواجه فرنسا على المنطقة الضيقة من المضيق الإنجليزي. للمزيد انظر:

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser,, p. 350.

يحمله من رسائل، وتم حبسه في قلعة دوفر[١]، ولكن بمجرد وصول أنباء ذلك الرسول إلى مسامع السيد مارتن، فقد توجه مباشرة إلى الملك ليسجل اعتراضه على هذه الأحداث، حيث قام الملك بقبول اعتراضه وأمر بإطلاق الرسول، وما يحمله من رسائل جاء بها من قبل البابا إلى المملكة الانجليزية[٢].

وفي تلك الأثناء قام الملك هنري الثالث بناءً علي نصيحة بعض النبلاء، ببحث دقيق في جميع المقاطعات في انجلترا؛ لمعرفة كمية الموارد التي يأخذها الرومان والإيطاليين من الأراضي الانجليزية، وقد تبين أن هذه الموارد تصل سنويًا إلي ستين الف مارك، وهو مبلغ أكبر من الدخل السنوي لإنجلترا كلها، وعندها أصبح الملك مدركًا لما يتهدد مملكته إذا ما استطاع البابا تنفيذ مآربه والحصول على ما يريده من ضرائب من الأراضي الانجليزية، وهو ما من شأنه أن يؤثر بصورة سلبية على اقتصاديات المملكة، ومواردها المالية، لذلك ما لبث أن أبدى اندهاشه من طمع الكنيسة الرومانية[٣]، وهو ما حدا به إلى الاجتماع برجال دولته عام ١٢٤٥م للتشاور ومن ثم قرر ارسال وفد إلى مجمع ليون عام ١٢٤٥م لعرض شكوى المملكة الانجليزية من الضرائب الباهظة المفروضة عليها من قبل البابوية، وإبداء السخط من الجزية المفروضة على الأراضي الانجليزية [٤].

---

(١) ترجع قلعة دوفر المشيدة في مدينة دوفر في مقاطعة كنت إلى العصور_الوسطى، حيث شيدها الملك وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧)، وصفت قلعة دوفر بأنها "الباب إلى إنجلترا"، نظرًا لكفاءتها الدفاعية عبر التاريخ، وهي تعد أكبر قلاع إنجلترا، وقد لعبت دورًا أساسيًا في مواجه الأعداء، أنظر:

Kerr, N, A Guide to Norman Sites in Britain,(London, 1984), P. 44; David J, An Index and Bibliography of the Castles in England,(Wales, 1983), p.230;

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser,, p. 350

(٢) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٧٤١؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P.431. Cf. also, Theilen : OP.Cit, p.14.

(٣) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٧٤٢-٧٤٣؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P. 431.

(٤) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٧٤٣؛

Davis, OP.Cit, pp.434- 435;Bower,A., The History of the Popes, from foundation of the See of Rome to the present time, Vol.VI,(London, M.DCC.LXVI (1766), p.244; Tout.: The History of England From The Accession of Henry III To The Death of Edward III (1216-1377), London- New York, 1905, p. 67; Gasquet: : Op. Cit, pp. 230-231.

وفي الوقت ذاته، تعرض السيد مارتن للتهديد من قبل بعض النبلاء بمغادرة الأراضي الانجليزية خلال ثلاثة أيام، وإلا سيتحول هو وتابعيه إلى قطع[١] (في إشارة إلى احتمال تعرضه للقتل هو ومن معه)، وهو ما أصاب المندوب البابوي بالفزع فتوجه على الفور إلى الملك ليستوضح منه عما إذا كان الأمر بمغادرته الأراضي الانجليزية هو أمر صادر من الملك نفسه أم أنه فقط جرأة من بعض التابعين له، حيث رد عليه الملك هنري بأنه لم يكن صاحب هذا الاجراء، إلا أنه أوضح للسيد مارتن مدى الضرر الذي لحق بمملكته من جراء الاجراءات التعسفية التي قام باتخاذها، مبينًا أنه وقف حائلا لمنع كلٍّ من النبلاء والأساقفة من مهاجمته، فما لبث أن طلب من الملك السماح له بالخروج الحر من المملكة ومغادرتها بأمان، وهو ما لقي قبولًا واسعًا من الملك الانجليزي هنري الثالث، ثم وجه الملك أوامره إلى السيد "روبرت نوريس" Robert Norris مندوب القصر الملكي بالحرص على وصول السيد مارتن إلى ساحل البحر بأمان ومغادرته للأراضي الانجليزية متوجهًا إلى إيطاليا عام ١٢٤٥م[٢].

وفور وصول مارتن للأراضي الإيطالية من العام نفسه، فقد قام برفع تقرير إلى البابا عن الأحداث التي مرت به في انجلترا، وهو ما أثار غضب البابا لما أصاب رسله ومندوبية من سوء المعاملة التي تعرضا لها في انجلترا وطردهم منها، حيث صرخ قائلا : " من المناسب لنا الوصول إلى اتفاق مع أميرك من أجل سحق هؤلاء الأمراء الصغار الذين يهاجموننا، فعندما يُسحق التنين، فإن الثعابين الصغيرة ستُدهس بسهولة تحت أقدامه"، وذلك في إشارة منه إلى الملك الانجليزي هنري الثالث[٣].

ومن خلال عرض بعثة مارتن وما انتهت إليه يتضح مدى إصرار البابوية في الحصول على الأموال من خلال فرض ضرائب جديدة على رعاياها، ومنهم بالطبع الرعايا الانجليز، غير مهتمة بما اعترى المملكة الانجليزية من تهديدات خارجية علي يد الملك الفرنسي لويس التاسع وما أصابها من تردي في الأوضاع الداخلية، تلك التي دعت كلا من النبلاء والأساقفة إلى رفضهم التام والمطلق لما تطلبه منهم البابوية والكنيسة الكاثوليكية في روما من ضرائب جديدة وإبداء تخوفهم من أنهم في حال موافقتهم عليها ربما تتحول إلى عُرف وفريضة تطالبهم

(1)Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, P.432. Cf. also, Arthur, C., Jennings, M., A., The Medieval Church and The Papacy, London, 1909, p. 88; AllShorn: Op. Cit, 219.

(٢) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٧٤٤،

Foxe: Op. Cit, Vol, II, Part 1, p.432. Cf, also, Theilen : OP.Cit, p. 15.

(3) Mathew Paris's: English History, from the year 1235 to 1273,Vol. 2,(Londan,1853), P 58; Foxe: Op. Cit, Vol, II, Part 1, P. 432. Cf. also, Theilen : OP.Cit, p. 16 ;Davis, OP.Cit, p.435.

بها البابوية بصفة دورية ومن ثمّ كان تهديدهم للمندوب البابوي مارتن ومحاولاتهم لطرده من مملكتهم والحيلولة دون وصول رسل ومندوبي البابوية إلى الأراضي الانجليزية، كذلك يتضح موقف الملك الانجليزي الذي حاول في البدء أن يقف على الحياد غير أن تصرفات المندوب البابوي وسلوكياته المزعجة في جمع الأموال بما يهدد الاستقرار الداخلي في المملكة قد دعاه إلى الانضمام إلى صفوف شعبه ورجال دولته في محاولةٍ منه إلى ابعاد السيد "مارتن" عن أراضي دولته مسترضيًا بذلك النبلاء والأساقفة من جهة وشعبه الذي ضاق ذرعًا بالمعاناة التي لقيها من محاولات البابوية جمع المال منهم بشتى الصور من جهة أخرى.

ونتيجة لهذه الأحداث، والتعسف الذي أبداه السيد مارتن في جمع الأموال بشتي الصور فقد ارسل الانجليز وفدًا إلي مجمع ليون ١٢٤٥م، الذي انعقد في جنوب فرنسا، حيث قدم السيد وليم دي باوريك **William de Baorek** المتحدث باسم الوفد الانجليزي شكوى جادة تنم عن ضيق نبلاء المملكة الانجليزية من الضرائب، التي تحاول البابوية فرضها على بلادهم(١)، مطالبًا برفع الظلم وتقديم الخلاص، وفي الوقت نفسه حمل الوفد الانجليزي معه رسالة إلى البابا(٢)، مبديًا فيها التقدير والاحترام للكنيسة راجيًا منها النظر بعين الرأفة إلى ما تبغي فرضه من ضرائب جديدة من شأنها أن تثقل من الأعباء الملقاة على المملكة الانجليزية المنهكة القوى داخليًا والمعرضة للتهديد من الخارج، حيث جاء في الرسالة: "إلي الاب المبجل ابن المسيح، براءة البابا، وكبير الأساقفة، أن النبلاء، ومعهم كل العامة في انجلترا، يرسلون لك التحيات والقبلات لقدماك المباركة ولأمنا كنيسة روما، فنحن نشعر بالحب لها من كل قلبنا...، إننا نقدم لها دعم مالي سنوي، والذي نسميه بنس بيتر، كما أن جميع الضرائب والإسهامات، كانت تدفع بكل حب ورضا وبدون اعتراض، وعلاوة علي هذا، فإنه ليس لعدم معرفة من جلالتكم، ولكن للتذكير فإن اجدادنا قد قاموا بدافع الحب والخوف من الخالق، كأي كاثوليكي مخلص، ببناء الأديرة والكنائس في أراضيهم الخاصة، ولحقهم في هذا اسلافهم وأحفادهم علي مر الزمان"(٣). كما أبدى الوفد من خلال رسالته إلى

(١) متي الباريسي: مصدر سابق: ص٧٦٥؛

Foxe: Op. Cit, Vol, II, Part 1, P. 432. Cf. also, Thomas Gaspey: OP.Cit, p. 271; Gasquet A: Henry The Third And The Church, (London, 1905), P. 231;Arthur, C., Jennings, M., A., OP. Cit, p. 88; Davis; OP.Cit, p.435.

(2) Robertson: History Of The Christian Church, Vol. III, (A.D. 1122-1303) (London, 1866), p. 414 ; Gasquet: : Op. Cit, P. 231; Davis, OP.Cit, p.435; Theilen : OP.Cit, pp. 18-19.

(٣) متي الباريسي: مصدر سابق: ٧٦٥-٧٦٦؛

البابا تذمرهم الشديد من جراء الاضطراب الذي عانت منه انجلترا نتيجة للممارسات التي قام بها المندوب البابوي "مارتن" وانحرافاته المتعددة[١]. وعلى الرغم من أن هذه الرسالة قد نشرت بشكل علني إلا أن البابا لم يقدم جوابًا مؤثرًا التأجيل، مما أثار غضب الوفد الانجليزي الذي أقسم اعضاؤه على أن لا يقوموا بدفع الضرائب، كما أنهم لن يقبلوا إعطاء موارد الكنائس واستغلالها، وأقسموا علي أنهم من الآن فصاعداً، لن يتبعوا سوي أسقف الكنيسة التابعة للمقاطعة الخاصة بهم (اي الكنائس الإنجليزية) [٢].

كما صاح الوفد علي رأسهم "روجر بيود" إيرل نورفولك Roger Bigod earl of Norfolk قائلاً: "إن الملك جون كان لا حق له، في أن يخدع باروناته، ويضع المملكة تحت عبودية البابا وات"[٣] حيث عارض الوفد، عدم قانونية القرار الذي أصدره الملك جون، عام ١٢١٣م[٤]، الذي وضع فيه المملكة الانجليزية تحت إقطاعية الكرسي المقدس وشمل اعتراضه أيضًا خيرات أراضي انجلترا التي كان الكرسي المقدس قد استولى عليها لصالح الغرباء[٥]. وهذا إن دل علي شيء، فإنما يدل علي مدي خيبت الأمل، التي انتابت الوفد الإنجليزي؛ من جراء رد البابا، الذي ينم عن عدم اهتمامه بقضيتهم وشكواهم، حيث كانوا ينظرون إليه علي أنه أبا لهم وكنيسه روما أما لهم، وأنهم ينتظرون منهما الحنان، بعد معرفة الآلام التي يعانون منها بسبب الضرائب، ولذلك قرروا بأن ولائهم لابد أن يكون لكنائسهم الإنجليزية، وليس للغرباء (أي كنيسة روما).

وكرد فعل من البابا إنوسنت الرابع، الذي تظاهر بالهدوء خلال المجمع، في مواجهة ثورة غضب الوفد الانجليزي على ما أعلنه وأقسم عليه أعضاؤه، فقد أرسل إلى جميع أساقفة انجلترا عام ١٢٤٥م بأن يقوم كل منهم بوضع ختمه على صك الضريبة، هادفا من ذلك تثبيته وجعله أبديًا[٦]، وهو ما من شأنه أن يتسبب في الحاق الضرر بالمملكة، وهو ما أثار بدوره سخط الملك هنري الذي اشتاط

Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part 1, pp. 432-434. Cf. also, Gasquet: Op. Cit, P. 232; Theilen: OP.Cit, pp.19-20.

(١) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٧٦٧-٧٦٨؛

Gasquet: : Op. Cit, pp. 232-233.

(٢) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٧٦٩؛

Foxe: Op. Cit, p. 434. Cf. also, Thomas Gaspey: OP.cit, p. 271; Gasquet: : Op. Cit, p. 233.

(3) Thomas Gaspey: OP.Cit, p. 271.

(٤) انظر، ص١، من نفس البحث.

(٥) بيير كاميللو، بيير مارافال، المجامع المسكونية، ترجمة: السيد بولس عطا الله، ٢٠٠٥، ص١٢٦.

(6) Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 434. Cf. also, Tout.: The History of England, p.67.

غضبًا من جراء هذا التصرف من قبل البابا، فأقسم على أن يقف بشجاعة للدفاع عن امتيازات المملكة، رافضًا دفع أية ضريبة للبلاط الروماني تحت اسم جزية[١]. كذلك ونتيجة لغضب هنري الثالث من شره البلاط الروماني وجشعة المتزايد في جمع الأموال من مملكته فقد رفض تنفيذ المرسوم الذي أصدره البابا بشأن تحويل ممتلكات الكهان، الذين يموتون دون وصية إلى استخدامات البابوية[٢]. حيث رأى الملك في ذلك محاولة غير مباشرة من البابا للحصول على المال من بلاده وهو الأمر الذي ينعكس بصورة سلبية على اقتصاديات مملكته[٣].

وفي هذه الآونة، وبعد الأحداث التي شهدها مجمع ليون، ورد فعل البابا إنوسنت الرابع غير المتوقع عما تقدم به أعضاء الوفد الانجليزي، وطلبه من أساقفة انجلترا وضع خاتمهم على صك الضريبة، وفي خضم تنفيذ الملك لما توعد به من رفضه إرسال أية ضريبة للبلاط الروماني فقد أرسل الملك برسائله، التي يحظر فيها على الأساقفة دفع الضريبة إلى البابا، حيث كتب إلى أساقفة وينشستر، ونوريك، وراعي دير القديس ألبان، يمنعهم من دفع الضريبة للبلاط الروماني[٤] متوعدهم بنزع ممتلكاتهم في حال رفضهم تنفيذ أمره، حيث جاء في رسالته: "من هنري إلى راعي دير القديس ألبان، لقد سمعنا بأن الأب المبجل"Fulk" أسقف لندن يرغمكم على دفع ضرائب من أجل البابا وكنيسه روما، وقد دُهشنا لذلك وانزعجنا؛ لذلك نأمركم، وبكل قوة نمنعكم، من محاولة

([1])Foxe: Op.Cit, Vol. II, Part. 1, p. 435.

(٣) قام البابا انوسنت الرابع باصدار هذا المرسوم بعد أن نمى إلى علمه أن بعض الكهنة في انجلترا قد ماتوا أغنياء ومن دون وصية، وكان من بينهم المعلم هيل Hell رئيس شماسة لنكولنLincoln، وألماريك Al Marec رئيس شماسة بدفورد Bedfor، والمعلم هوتوفب Hotofb رئيس شماسة نورثأمبتون ، فقام البابا بإصدار هذا المرسوم الذي يقضي بأنه إذا مات أي كاهن من دون وصية فإن ممتلكاته ينبغي تحويلها إلى استخدامات البابا ، وأصدر أمرًا إلى رهبان الدومينيكان والفرنسيسكان بتنفيذ هذا المرسوم. للمزيد انظر: متى الباريسي: مصدر سابق، ص٨٨٥.

(٤) نفسه، ص٨٨٥-١.٨٨٦

([٤]) في عام ١٢٤٦ ، بعد انتهاء مجمع ليون، تأكيداً من البابا علي انه غير راضي علي اعتراض الإنجليز وملكهم علي الضرائب، التي ترسل إلي روما، حيث أرسل البابا إنوسنت الرابع، إلي أساقفة وينشستر ونوريك، وغيرهم من الأسقفيات الانجليزية، لجمع سته الاف مارك من بين الحاشية الدينية للملك، وديار الدين في انجلترا (الأديرة والكنائس)؛ من أجل رضا الكنيسة الام المقدسة (روما)، بدون أي أعذار أو تأخير، وعندما وصلت تلك الأخبار إلي الملك هنري ومن حوله ، ذاد غضبهم وسخطهم علي البابا. للمزيد انظر:
Foxe: Op. Cit, Vol. II, Part. 1, p. 435.

القيام بأي شيء معاكس لما تقدم الأمر به، ما دمتم تؤثرون المحافظة بسلام على امتلاككم لبارونيتكم التي هي بحوزتكم منَّا"[١].

وعلى الرغم من محاولة التذمر الذي أبداها الملك الانجليزي وشكواه من الضرائب المفروضة من قبل البابوية على بلاده، فإن البابا عمل على أن لا تتوقف جباية الضرائب من انجلترا؛ لذا قام بعمل أكثر الطلبات سرعة وإلحاحًا من أجل جمع الـ ٦٠٠٠ آلاف مارك، غير عابئ بالشكاوى الموجهة ضده من المملكة الانجليزية؛ حيث قام بتعيين "وولتر"أسقف نوريك Norek وآخرين، وذلك ليكونوا رسلًا خاصين لهذه الغاية ، حيث بعث "وولتر Wallter" إلى راعي دير القديس البانSant Alban وغيره برسائله التي جاء فيها: " من وولتر، الذي هو بنعمة الرب أسقف نورويك إلى راعي الدير المبجل والمجمع الرهباني لدير القديس ألبان، صحة دائمة: "لقد تلقينا وصاية من مولانا البابا محتواها"[٢]. أن الأساقفة الانجليز يجب عليهم دفع مبلغ الستة آلاف مارك المطلوبة من الكنائس الانجليزية إلى رسل البابا المرسلين لهذه الغاية، وعلى رأسهم أسقفي وينشستر Winchester ونورويك ، وان الستة ألاف، لابد ان تجمع وتكون في الدير الجديد في لندن في عيد القيامة[٣] القادم، وفي الوقت ذاته يحذرهم فيه من التقاعس عن دفع المبلغ المذكور، آمرًا بردع جميع المعارضين بواسطة الروادع الكنسية[٤].

وفور وصول هذه الأنباء إلى مسامع نبلاء انجلترا وأساقفتها ما لبث الجميع أن أصابتهم الدهشة بما في ذلك الملك هنري الثالث نفسه[٥]؛ حيث أنهم لم يكونوا يتوقعون ذلك من البابا، بل كانوا على ثقة أنه سوف يرفع يد الظلم، عنهم منهيًا بذلك اضطراباتهم؛ غير أن هذا التصرف غير المتوقع من البابا قد أثار سخط الملك الانجليزي، الذي ما لبث أن كتب إلى أساقفة بلاده عام ١٢٤٦م يأمرهم بعدم جمع أية ضرائب أو أموال من أجل البابا أو أي انسان آخر، لأنه – حسب رأيه– ما من ضريبةٍ أو فريضة من هذا النوع قد كانت عادة قط، كما أن فرض مثل هذه الضرائب من شأنه الحاق أضرار كبيرة بالكرامة الملكية، وهو

---

(١) متى الباريسي، مصدر سابق، ص ٨٨٧؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part 1, p. 435.

(٢) متى الباريسي: مصدر سابق، ص ٨٨٨ .

(٣) عيد القيامة: هو ما يُعرف بعيد الفصح، وهو عيد يُحتفل فيه بذكري قيام المسيح، ويختلف موعده تبعًا لاختلاف التقاويم. انظر:

نجلاء حسين محمد: البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ٢٠٠٨، ص٧٥.

(4) Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part 1,p. 436. Cf. also, Keightley. T, Smith. J. T : Op.Cit, pp.149-150.

(5) Arthur, C., Jennings, M., A., OP.Cit, p. 88.

الأمر الذي لا يمكن احتماله، حيث حذر الملك أساقفة مملكته من القيام بإرسال أية أموال إلى البابوية، مهددًا بنزع ملكية بارونية من يقوم بذلك، مؤكدًا في ختام رسالته أنه ما قام بذلك إلا لضمان حرية رجال الدين وكذلك حرية شعبه وبلاده، حيث قال: "من هنري الذي بنعمة الرب...، إلي كذا وكذا (أساقفة انجلترا).... نحن مندهشون كثيرًا، وغاضبون ...، حيث إنكم بالموافقة مع الأساقفة الآخرين، قد وافقتم في المؤتمر الأخير، بأنكم لن تفعلوا شيئًا في مسألة الضرائب الأخيرة التي تفرضها البابوية، حتي يتمكن رُسلنا الذين هم رُسلكم، ورسل عن جميع الإنجليز من العودة من البلاط الروماني، الذين قد أرسلوا لتخليصنا من المظالم، ولذلك نحن نفرض عليكم أوامرنا، ونمنعكم من استخراج أو فرض الضريبة البابوية المذكورة، وإذا كنتم قد تسلمتم أي شيء هنا (اي في انجلترا)، فإنه غير مسموح لكم بأي شكل من الأشكال بحمل ذلك خارج المملكة، بل عليكم حفظ ذلك في مكان أمين حتي عودة الرسل من البلاط الروماني...، وإن هذا الحظر يعلم الله إننا عملناه؛ لضمان حرية رجال الدين والناس أجمعين"[١].

وهكذا وضعت الكنيسة الانجليزية بين شقي رحا دار كل منهما بالاتجاه المعاكس للآخر حيث المواجهة بين كلٍ من البابوية التي تريد تحصيل المزيد من الأموال غير عابئة بالإفقار الذي سيلحق بمملكة انجلترا، والملك الذي يحاول جاهدًا، ويدعمه في ذلك الرأي العام الانجليزي الحفاظ على المملكة واصلاحها، وهو ما يؤكد مدى المعاناة التي عاشها الشعب الانجليزي من جراء تلك الضرائب البابوية، مما انعكس بجلاء في صورة التذمر والتمرد على البابا ودعم موقف الملك "هنري الثالث" في رفضه تقديم أية ضرائب أخرى تفرضها البابوية على بلاده.

وعلى أثر عودة الرسل الانجليز من البلاط الروماني، وهما وليم دي باوريك، هنري دي لي مير فقد عقد الملك ونبلاء مملكته مؤتمرًا، في ونشستر[٢] Winchester لمناقشة الأوضاع التعيسة التي تمر بها انجلترا، وفي هذا المؤتمر عرض المعلمان المذكوران ما حملاه من البلاط الروماني، حيث حملا للمؤتمر رسالة من البابا لم تتضمن شيء حول رفع المظالم، بل تضمنت كثير من

---

(١) متى الباريسي: مصدر سابق، ص ٨٩٠- ٨٩١.

(٢) ونشستر: تُعرف بالمدينة الكاتدرائية التاريخية، كانت عاصمة سابقة لإنجلترا، كانت عاصمة مقاطعة هامبشاير في جنوب شرق إنجلترا، في عام ١٠٦٦ أصبحت أسقفيه ومن أهم المعالم الرئيسية بها، كاتدرائية ونشستر، تميزت المدينة بأنها كانت موقع دفن العديد من ملوك السكسون والدنماركيين، وفي الفترة من القرن الحادي عشر إلي القرن الرابع عشر كانت تمثل المركز الفكري لإنجلترا، حيث تأسست كلية ونشستر في أواخر القرن الرابع عشر، وهي تمثل أقدم مدرسة عامة في إنجلترا.

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser, p. 1424.

كلمات السخط والغضب من قبله، الذي جهر بعدائه للملك الانجليزي في قوله لرسل المملكة الانجليزية : " إن ملك انجلترا، الذي يتحرك الآن ضدي، حاذيًا حذو فريدريك، لديه خططه، وأنا لديَّ خططي التي سوف أتبعها""[١]، ولأن البابا كان قد قام بطرد الانجليز من البلاط الروماني ومعاملتهم كمنشقين عن الكنيسة، مما أدي إلي زياده حنق الملك، الذي أمر بأن يتم الاعلان بواسطة المنادين في جميع الكونتيات والقرى والأسواق بعدم السماح لأي شخص بتقديم أو الموافقة على أية اسهامات مالية لصالح البابا، وهو الأمر الذي ما لبث البابا أن واجهه بغضب عنيف حيث كتب إلى الأساقفة الانجليز يأمرهم، تحت وطأة التهديد بالحرمان الكنسي بإرضاء رسوله الذي كان مقيمًا بالدير الجديد بلندن [٢].

وعلى الرغم من محاولات الملك الانجليزي الصمود في مواجهة الموقف البابوي والنضال من أجل حرية المملكة والكنيسة الانجليزية، إلا أن التهديدات التي وجهها إليه البابا عام ١٢٤٦م وكذلك بعض الأساقفة من القاء عقوبة الحرمان الكنسي على البلاد جميعها، قد أدت إلى تراجعه عن مواقفه السابقة والإذعان للبلاط الروماني، وبالتالي تلاشت الآمال حول امكانية تخليص المملكة والكنيسة الانجليزية من الخضوع للبابوية في روما، الأمر الذي يؤكد ما كان للبابوية من تأثير سياسي ونفوذٍ يكفل لها الخروج ظافرة منتصرة في كثير من الصراعات التي كانت تخوضها ضد الحكام والملوك العلمانيين الذين كانوا يحاولون مرارًا وتكرارًا التخلص من سطوة النفوذ البابوي على بلادهم[٣]. يتضح من خلال ما سبق مدى شدة الصراع الذي كان قائمًا بين البابوية والمملكة الانجليزية، كما يتضح مدى الجشع الذى اتصفت به البابوية في محاولاتها جمع المزيد من الأموال غير مهتمة بما يلحق برعاياها من أعباء قد لا يستطيعون تحملها.

فما كان صمت الملك في البداية ولا إذعانه في النهاية إلا لما يبغيه من وقوف البابوية إلى جواره وتدعيم سلطانه الدنيوي باعتراف البابوية به، وهو ما اتضح بصورة كبيرة في قبول الملك الانجليزي إطلاق يد البلاط الروماني في جمع الضرائب من بلاده وأن يحصل منها على الستة آلاف مارك الذين طلبتهم البابوية[٤].

وازدادت جرأة البابا أكثر في جمع الأموال في مطالبته جميع الأساقفة والنبلاء القاطنين في منافعهم في انجلترا عام ١٢٤٦م، بوجوب إعطاء حصة الثلث من ممتلكاتهم إلى البابوية[٥]، أما بالنسبة لغير المقيمين في انجلترا يجب

---

(١)) متي الباريسي: مصدر سابق ، ص٨٩٣- ٨٩٤.

(٢) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٨٩٤.

(3)Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part 1, pp. 436-437.

(٤) متى الباريسي: مصدر سابق ، ص٨٩٤، ٩٠٩.

(٥) يقصد بذلك ثلث الإيرادات التي يحصلون عليها من ممتلكاتهم.. للمزيد انظر:

اعطاء نصف ممتلكاتهم للبابوية، ويكون ذلك لمدة ثلاثة سنوات متتالية[١]، وفي تلك الأثناء، قام البابا بتعيين أسقف لندن من أجل تنفيذ ذلك الأمر، وقد قلق الأسقف من ذلك الأمر، وقام بالتشاور مع أخوته في كنيسه بولس، ماذا يفعلوا في ذلك الحمل الثقيل الذي طلب منهم، حيث رأوا في البداية أنه من المستحيل، أن يوافقوا علي تنفيذه ولكن تحت تهديدات البابا بالحرمان وغيرها من العقوبات الكنسية، تمكنت البابوية من جمع مبلغ من المال يصل إلي ٦٠ألف مارك [٢].

وعلى الرغم من الموقف المتراجع للملك الانجليزي أمام النفوذ البابوي إلا أن ذلك لا يمنع من أن الملك حاول، وبصورة غير معلنة الوقوف ضد تزايد الأطماع البابوية في بلاده، خاصة عندما علم بما طلبه البابا من أسقف لندن، وما جمع من أموال لصالح البابوية، فقام علي الفور بإرسال السير جون ليكسينتون John Lexinton، وكنت Knt، ولورانس مارتن Lawrence Martin كاهن الملك، إلي أسقف لندن، حيث طلبوا منه علي لسان الملك هنري، عدم تنفيذ ما طلبه البابا بأي حال من الأحوال، لأن تلك الضريبة إذا نفذت بالفعل لمدة ثلاثة سنوات، فسوف يتترب عليها عواقب وخيمة علي الاقتصاد الإنجليزي، سوف يؤدي إلي الخراب والدمار للمملكة ككل[٣]. وأن المملكة لا تتحمل ذلك، حيث كانت في حالة خطر من احتمال قيام الملك الفرنسي لويس التاسع بمهاجمة مقاطعة جسكوني[٤] Gascony الخاضعة للحكم الانجليزي[٥].

في الوقت نفسه، قدم الإنجليز شكاية أمام ملكهم، الذي كان عليه الدفاع عن الصالح العام ومنع هذا الأذى عن بلاده، غير أن الملك الذي لم يعد باستطاعته الجهر بالمعارضة الصريحة للبابوية قد توافق رأيه مع الجماعة الانجليزية، وفي فبراير عام ١٢٤٧م، دعا الملك هنري الثالث البرلمان للانعقاد في لندن، ومن خلال نصيحة بعض مستشاريه، بوجوب مراسلة روما ليعرضوا أمام كنيستها المظالم المتزايدة علي المملكة، وعليه أرسلت رسالة إلي البابا إنوسنت الرابع باسم جميع رجال الدين والإنجليز جميعا[٦]، جاء فيها :" إن

متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩١٢.

(1) Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part 1, p. 438.

(2) Ibid, p. 438.

(٣) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩١٣؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 438.

(٤) جاسكوني: تقع في جنوب غرب فرنسا، تتكون المنطقة من التلال الشمالية لسلسلة جبال البيرينيه، وهي من المناطق المتنازع عليها بين إنجلترا وفرنسا. للمزيد انظر:

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser, p. 450.

(٥) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٢٧.

(٦) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٢٧؛

الكنيسة الانجليزية الساعية دومًا لإرضاء الكنيسة الرومانية المقدسة والملتزمة دومًا بعبادة الرب بإخلاص من دون التخلي عن الواجب الذي تحمله تُلقي الآن بنفسها عند قدمي قداستك، أي البابا؛ رغبة في الحصول علي رضاكم، وتقدم لكم هذه ا لعريضة، أنه بالنسبة لمطلب المال الذي طلب منها، بطرق مختلفة وبضغط شديد من أجل مساعدة شعوب مُتنوعة، بأن تتفضل عليها بملء عواطفك وأن تتنازل بإبداء الرحمة تجاهها لأن العبء المطلوب منها لا يُمكن تحمله وبالرغم من أن بلدنا يقدم ثمرة الخضوع لقداستكم، الا إننا لا نحصد الذهب ولا الفضة، ولم نعد قادرين علي تقديم ما كنا نقدمه سابقا، ناهيك عن الزيادة المطلوبة "[١].

كما اعتذر الانجليز إلى البابا بحاجة مملكتهم إلى المال لصد هجمات أعدائها والدفاع عنها واسترداد ما انتزعه الأعداء منها ، بقولها:" المساعدة مطلوبة الآن من رجال الدين إلى مولانا وملكنا الدنيوي، من أجل أن نمكنه من صد هجمات الأعداء والدفاع عن ميراثه واسترداد ما تم انتزاعه منه"[٢]، كذلك، ومن أجل الحصول على المزيد من الدعم فقد قام الانجليز بتقديم رسالة مماثلة إلى الكرادلة من أجل الحصول على دعمهم للقضية الانجليزية، شاكين إليهم وطأة الضرائب المفروضة عليهم، وعدم قدرتهم على تحمل أعبائها، حيث جاء فيها:" إلى أكثر الآباء تبجيلا في المسيح والرب، كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من عبيدهم المخلصين، بصدق واحترام لائق، وتشريف، بحكم كونكم القواعد المستندة عليها كنيسة الرب فإننا نتوجه إليكم بالتماسات متذللة، ونحن نرجوكم بحرارة، أن تمنحوا الاهتمام وأن تُصغوا إلى المظالم التي نتألم في ظلها، وأن تعطونا العون، في سبيل أن تتمكن الكنيسة الانجليزية من استرداد أنفاسها، بعد اضطرابات متوالية واجهتها فيما مضى، ونحن مقابل هذا ملتزمون بأن نرد إليكم شكرنا المتوجب"[٣].

علي أية حال، يبدو أن توسلات الإنجليز والتماساتهم، لم تجد من يصغوا إليها باهتمام حيث نظر البابا إليها علي إنها مجرد استعطاف، ولهذا، فإن مطالبة يجب أن تنفذ[٤]. من الواضح أن البابا، أبي أن يترك حصاده، ولذلك لم يهتم بمعارضة الإنجليز لمطالبة الجديدة، سواء رجال دين أو عامة الشعب أو حتي الملك.

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, pp. 438- 439.

([١]) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٢٧-٩٢٨؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 439.

([٢]) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٢٨؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 439.

(٣) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٢٩؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 439.

([4]) Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 439.

ولذلك أعد رسالة باحتراف؛ للرد علي الإنجليز، جاء فيها: "إن كان البابا في الوقت الماضي، بناءً علي رغبته، قد وافق علي أن تقدم انجلترا هذا التظلم، فإنهم قد أظهروا عدم الاحترام، في إشارتهم للإيطاليين، ولكن الآن، وبمباركة الرب فقد هبت العاصفة لهذا الأمر المبالغ فيه، فإذا كان البابا قد منح لأي من أقرباءه أو الكرادلة منحه ما، فعليه أن يحصل علي إذن الملك ورضاه علي المنحة، ونفذوا ما راه الملك صحيحًا ويظنه خيرًا"[١].

يتضح من ذلك، أن البابا قد أصدر أمرًا يقضي أنه إذا ما جرى اعطاء أي احد من أقرباءه أو أقرباء الكرادلة، منحة فعليه أن يحصل على إذن الملك وعلى رضاه على المنحة التي تم تقديمها. وما كان هذا الامتياز إلا خدعة من البابوية تقضي بتوريط الملك فيما تقوم به الكنيسة الرومانية عن طريق أخذ موافقته على الاجراءات التي تقوم باتخاذها بأراضي المملكة الانجليزية.

ويتضح ذلك، عندما قام البابا "انوسنت الرابع" في عام ١٢٤٧م، بإرسال راهبين من طائفة الفرنسيسكان إلى انجلترا، هما جون Joan والكسندرAlexander وهما من أصل انجليزي، لقد أرسل البابا هؤلاء الرسل بصلاحيات نائب بابوي دون أن يمنحهم شارات ذلك المنصب؛ حيث كان يتحاشى أن يظهر أمام الملك الانجليزي في صورة المسيء إليه، لاسيما بعد أن قام بمنحه امتيازًا يقضي أنه لا يجوز لأي نائب بابوي القدوم إلى الأراضي الانجليزية دون استشارة ملك انجلترا وموافقته على ذلك[٢]. وكانا قد حصلا من البابا على سلطة تحصيل المال من أجل احتياجات البابوية ، وكانا في سبيل ذلك مسلحين بالرسائل الممهورة بالختم البابوي، حيث مثلا أمام الملك بنظراتهم المتواضعة وحديثهما المعسول، راجين من جلالته الإذن بالتجول في الأراضي الانجليزية لطلب الإحسان من أجل احتياجات الباباوية، معلنين أنهما لن يمارسا أي ضغط[٣] . غير أنهما ما إن حصلا على الإذن الملكي حتى أبديا ظهر المجن، فما كادا ينطلقا من البلاط الملكي حتى مارسا طغيانهم في طلب المال وفرض الإتاوات، حيث ذهبا إلى أساقفة أعلى الطوائف في انجلترا، طالبين المال لحاجة البابوية، ومن هؤلاء "روبرت" Robert أسقف لنكولن، للحصول على مبلغ ستة آلاف مارك، إلا انه أجاب برفض طلبهما قائلا: "حضرة الراهبين، إن هذه الإتاوة – مع احترامي للسلطة البابوية – مُهينة وغير صحيحة، ولا يمكن الاهتمام بشأنها، وذلك لأنه

(١) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٣١؛
Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 439.

(٢) متى الباريسي: مصدر سابق، ص٩٣٢؛
Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 440.

(٣) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٩٣٢؛
Foxe: Op.Cit, Vol. II. Part. 1, p. 440.

من غير الممكن القيام بتنفيذ مطلبكما، ثم إن المسألة لا تعنيني أنا فقط، بل كذلك تعني جميع جماعة رجال الدين والشعب، والمملكة بشكل عام"[١].

بعد هذا الجواب غير المريح لهما توجه الراهبان إلى دير القديس ألبان، حيث طالبا راعي الدير هناك بدفع مبلغ أربعمائة مارك من أجل الاحتياجات البابوية، وبكل غطرسة طالباه بوجوب الدفع خلال وقت قصير تحت طائلة التهديد بأقسى العقوبات (الحرمان الكنسي)، غير أنهما ما لبثا أن غادرا وهما يتمتمان ويزمجران ويهددان، حيث كان رد راعي الدير مماثلا لرد أسقف لنكولن في رفض وعدم الموافقة على طلبهما[٢]. وفي خضم هذه الأحداث وفي سبيل التخلص من امتياز الملك قام البابا بإرسال السيد مارين Marin ، وكان قسيسه، إلى انجلترا ، حيث اختاره لا لاكتساب الرجال، وانما للحصول علي ممتلكاتهم، وعلى الرغم من أن "السيد مارين" هذا لم يُمنح رسميًا شارات نائب بابوي، إلا أنه قد تسلح بقوة بكل سلطات نائب بابوي، حيث أقدم البلاط الروماني على إرساله بعد أن رأى أن جامعي الأموال المتنوعين الذين جرى إرسالهم غير كافين لجمع المال[٣].

وفي اطار حرص البابوية على جمع المال أرسل البابا انوسنت الرابع عند بداية الصوم الكبير من العام نفسه، رساله مع السيد جون، حذر من خلال رسالته إلى راعي دير القديس ألبان بالسلطات التي مُنحت للراهب جون ومنها صلاحياته في اصدار الحرمان الكنسي وتعليق كنائسهم من شراكة المؤمنين، حيث قال:" من إنوسنت إلي ابنه المحبوب، جون راعي دير القديس البان، إن حوادث الاضطهاد اليومي ترغمنا بقسوتها، وفي مقاومتنا لها اللجوء إلي عون اللذين هم رعية لنا؛ لنجدة الكرسي الرسولي، وبناءً عليه إننا بموجب نصيحة إخواننا نسألكم ونذكركم ونأمركم، بأن تمنحوا ثقة كاملة إلي ولدنا المحبوب كثيرًا جون، الذي هو انجليزي والمسئول الإقليمي لرهبان الفرنسيسكان في بروفانس، سوف يبين لكم ما يتعلق بالمساعدة المالية المطلوبة إلي الكرسي الرسولي..، وعليكم أن تفعلوا كل الذي سوف يطلبه منكم، وبذلك يمكن إعطاء الرضا لنا وإلي إخواننا...، صدر في ليون في الثاني عشر من تشرين في السنة الرابعة من حريتنا"[٤] . كذلك أرسل البابا إلى نائبه جون بأهمية أن يجبر الأساقفة الذين مُنحو فيما مضى العفو من تقديم مساعدات مالية إلى روما، على دفع أكبر مبلغ يمكن الحصول عليه من المال خلال مدة ملائمة، طالبًا منه ضبط جميع المتمردين من

(١) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٩٣٢-٩٣٣؛
Foxe: Op.Cit, Vol. II. Part. 1. p. 440.

(٢) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٩٣٣-٩٣٤؛
Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 440.

(3) Mathew Paris's , OP.Cit, Vol. 2, P 139.

(٤) متي الباريسي: مصدر سابق، ص ٩٥٠-٩٥١

خلال الروادع الكنسية، مع الغاء جميع الأعذار وعدم السماح بأي امتيازات أو اعفاءات[١].

يُلاحظ مما سبق ومن خلال البعثات المتوالية للمندوبين من قبل البابا إلي الأراضي الانجليزية سواء بصورة رسمية أو غير رسمية مدى اصرار البابوية على جمع الأموال من انجلترا، وايرلندا [٢]، وذلك على الرغم مما منيت به العديد من تلك المحاولات بالرفض من قبل الانجليز.

ونتيجة لذلك فقد خشي الأساقفة الانجليز أن يقوم العلمانيون والأمراء المدنيون، بسبب ما أقدم عليه البابا من إعادة امتلاك مقتنيات الكنائس، ولذلك تقدم أعضاء المجمع الكهنوتي لكنيسة القديس ألبان بالتماس إلي الكرسي الرسولي؛ بأنهم غير قادرين علي جمع الـ أربعمائة مارك المطلوبة[٣]، حيث أرسلوا أحد رهبانهم ويدعي "جون بولوم" John Bulum، و"المعلم آدم دي بيرن" De Bern، إلا أنه وقبل عودة هذين الرسولين قام المندوب البابوي بإرسال رسالة إلى جون راعي دير القديس ألبان يطالبه فيها بالتخلي عن جميع الاعتذارات، وتقديم الترضية الكاملة وبطريقة لا تدفع النائب البابوي إلى اتخاذ اجراءات، غير مناسبة. وعلى الرغم من ذلك فقد فضَّل راعي الدير وكذلك التجمع الرهباني الاحتكام إلى البابا عن الوقوع تحت قبضة التذلل والفقر، لكن في الوقت الذي أرسل فيه الرسل إلى البلاط الروماني، فقد قام المندوب البابوي جون بالضغط عليهم بشدة حدت برئيس شماسة القديس ألبان إلى مراسلته لتلطيف قسوته، غير أنه أجاب بأنه سوف يمارس أشد أنواع العدالة وأقصى ما تسمح به سلطاته، مبديًا تذمره من رهبان الدير الذين لم يقدموا له الاحترام اللائق به كنائب بابوي. لكن على الرغم من ذلك، فقد استطاعوا أن يستمهلوه إلى أن يتم سماع الرد من الذين تم ارسالهم إلى روما ، هؤلاء الذين واجهوا العديد من المتاعب والمثبطات قبل أن يتمكنوا أخيرًا عن طريق وساطة بعض الأصدقاء بالبلاط

---

(١) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٩٥٢.

(٢) في نفس العام، تم ارسال السيد "جون الأحمر" من قبل البابا؛ لجمع المال من الأراضي الإيرلندية، مع صلاحيات كاملة وكأنه نائب بابوي، مع أنه لم يمنح شارات تلك الوظيفة؛ وذلك حتي لا يظهر البابا بأنه يسئ إلي الملك الانجليزي، الذي قد خيل له بناءً علي الامتياز الذي وعده به البابا، بأنه ما من نائب بابوي يجوز أن يأتي إلي أراضيه بدون علمه، وعلي كل عندما وصل جون الأحمر، قام بتنفيذ أوامر البابا، حيث صرف نفسه نحو تجميع المال، وقد استطاع أن يجمع حوالي ستة ألاف مارك من ايرلندا، وتم ارسالها إلي لندن لإضافتها إلي خزانة البابا، لكن جميع هذه الإجراءات كشف أمرها، حيث علم بها الإمبراطور فريدريك الثاني، ومن ثم وصل خبرها إلي الملك هنري الثالث. للمزيد انظر:
متي الباريسي: مصدر سابق، ص٩٣٦.

(٣) متي الباريسي: مصدر سابق، ص٩٥٢؛
Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 440.

الروماني من الحصول على تسوية للقضية تقضي بدفع مائتي مارك إلى البابا هذا بالإضافة إلى ما حصل عليه الوسطاء من الهدايا التي جعلت المبلغ يتزايد ليصل إلى ثلاثمائة مارك(١).

وفي تلك الأثناء أمر الملك، الذي شعر بالخطر المحدق بمملكته، باجتماع جميع النبلاء الانجليز في اكسفورد(٢) Oxford في أبريل عام ١٢٤٧، و لذلك دعا البرلمان (٣) والأساقفة رعاة دير ألبان، الذين تعرضوا للإفقار بسبب إتاوات البابا، لأن أموال انجلترا غالبًا ما نُقلت منها إلى الخارج دون أن يتم تحقيق أية مكاسب للكنيسة الإنجليزية، التي تعرضت من جراء ذلك للخسارة غير أن الاجتماع انتهى إلى دفع أحد عشر مارگا من قبل الأساقفة يتسلمها أسقفا وينكستر ونورويك اللذان كانا مسلحين بالسلطة البابوية، وهكذا بات رعاة الدير المعفيين، الذين لا ينبغي عليهم دفع ضرائب (٤) عرضة لإرادة البابا، ويومها انتابت الحاضرين المخاوف من أن يقوم الملك بإرغام الكنيسة على الإذعان إلى هذه

---

(١) متى الباريسي: مصدر سابق،، ص٩٥٣ ـ ٩٥٥.

(٢) أكسفورد: تقع في أكسفوردشير، في وادي نهر التايمز، تبعد حوالي ٥٢ ميل شمال غرب لندن، وهي مدينة صغيرة المساحة بالنسبة لتعداد سكانها، كما تتميز أكسفورد بالمساحات الخضراء الواسعة من الأراضي الزراعية الممتدة حول المدينة. انظر:

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser, p. 975.

(٣) البرلمان الانجليزي: تعود جزوره إلي المجالس الأنجلوسكسونية الشعبية المكونة من مجالس مستشاري البلدات أو المجلس الشعبي Folk Moot، ومجلس مستشاري المقاطعة Shire Moot، ومجلس المستشارين Witans Moot، المكون من الزعماء الدينين والمساعدين الذين اعتاد علي استشارتهم ملك الممالك السبع Heptarchic، التي يعود تأسيسها إلي القرنين الخامس والسادس في إنجلترا بعد مجيء الأنجلوسكسون، حتي دمجها " أجبرت" Egbert ملك ويسكس في مجلس واحد عام ٨٢٧م، بعد أن وحد تلك الممالك في مملكة واحدة، وهي إنجلترا، وقد عرف هذا المجلس بـ "وايتان"، وقد تطور البرلمان الإنجليزي، وقد عُدت سنه ١٠٦٦م التاريخ الرسمي لتغير اسم مجلس الحكماء (الوايتان) إلي المجلس الكبير، وبمرور الوقت لم يُعد بإمكان الملك الاستغناء عن مشورة المجلس قبل البت في الأمور المصيرية في المجالات التشريعية والتنفيذية والقضائية، منها تنصيب الأساقفة وحكام المقاطعات وعزلهم والموافقة علي التشريعات والقوانين التي يصدرها الملك لا سيما الضرائب وإعلان الحرب، حتي بات البرلمان يمثل خطراً علي العرش الإنجليزي، لاسيما بعد إصدار العهد الأعظم، واشتد الصراع بين البرلمان والعرش في القرنين الثالث والرابع عشر، بالصورة التي انتهت إلي تناقص نفوذ العرش وتقلص صلاحياته تدريجياً. للمزيد انظر:

طالب محيبس حسن الوائلي: البرلمان الإنجليزي خلال العصر الوسيط النشأة والتطور، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد الثاني، ٢٠١٠، ص د-ذ-ر.

(٤) يقصد بهم الأساقفة الذين لا ينبغي عليهم دفع ضرائب

الإتاوة[١]، حيث كان التوافق سائدًا بين الملك والبابوية، لا سيما بعد أن كتب البابا مؤخرًا إلى نبلاء انجلترا بالانصياع لإرادة الملك "هنري الثالث"، وهو ما يدل على أثر المصلحة في تحديد العلاقة بين السلطتين الدينية والمدنية، ومدى حرص كل منهم على التوافق مع الآخر لتحقيق مصالحه حتى لوكان ذلك على حساب المصلحة العامة.

وامتدادًا للأحداث السابقة ، واستنادًا إلى جشع البابوية في جمع الأموال من مملكة انجلترا واستغلال البلاط الروماني لجبن الملك الانجليزي وضعفه، وفي الوقت الذي حُرمت فيه انجلترا من الحكام المنصفين المدافعين عنها وعن مصالح شعبها، تلقى راعي دير أبنغدون Abingdon [٢] عام ١٢٤٨م أمرًا من البابا بأن يقوم بتجهيز وظيفة لأحد الرومان، حيث أتيحت له هذه الفرصة عندما أصبحت كنيسة القديسة هيلين في بلدة أبنغدون شاغرة، إلا أن راعي دير أبنغدون كان قد تلقى في هذا الوقت أمرًا مستعجلا من الملك أن يسلم الكنيسة لأخ الملك من أمه ايثيلمار Ethilmar وهو ما وضع راعي الدير في موقف حرج بين أن يأبي رغبة الملك أم رغبة البابا، لذلك قام باستشارة رهبان ديره، أولئك الذين أشاروا عليه بأن يقوم بتسليم الكنيسة لأخ الملك ما دام الملك يستطيع حمايته من ظلم البابا، فهو بالنسبة لهم أفضل من الرومان؛ الذين دائمًا ما يتآمرون ضدهم ويضطهدونهم[٣] ، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنما يدل على كراهية الأساقفة الانجليز للبلاط الروماني ومقتهم من اضطهاده لهم واستنزافه المستمر لأموالهم.

وعلي أية حال، بمجرد إبلاغ الملك بذلك أقدم على الفور بوعد راعي الدير بحمايته الخاصة بينما عاد الروماني، سالف الذكر، إلى البابا وحكى له اشكاليات الموضوع مما أثار غضب البابا فاستدعى راعي الدير المذكور للمثول أمامه، بتهمة عدم الطاعة، كان ذلك في الوقت الذي لم يلق فيه راعي الدير أية مواساة أو مساعدة من الملك، ورغم كون رئيس أبنغدون كبيرا في السن ومريضًا، فقد تم ارغامه من قبل البابا علي السفر إلي روما، فقد عانى الكثير من الآلام وتم

(1) Mathew Paris's , OP.Cit, Vol. 2, P 148.

(٢) دير أبنغدون Abingdon: تقع مدينة أبنغدون في بلدة أكسفورد شاير Oxford shire، في ملتقي نهر التايمز، ونهر أوك Ock، علي بُعد ٦كم جنوب أكسفورد، اشتهرت المدينة بالدير البنديكتي، الذي تأسس حوالي عام ٦٧٥م ، كان يُعد مقرًا هامًا لتعلم في العصور الوسطي في إنجلترا. للمزيد انظر:

Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser, p. 4.

(٣) متي الباريسي: مصدر سابق، ص١٠٢٥-١٠٢٦؛

Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 441.

ارغامه على ترضية الروماني، المذكور، بأن يدفع له خمسين مارگا سنويًا[١]، وهو الأمر الذي ألحق الكثير من الأضرار بكنيسته.

وفي العام نفسه، وعلي أثر وفاة راعي دير القديس ادموند عام ١٢٤٨م، أنتخب رهبان الدير واحدًا من بينهم، وقد أرسلوا إلي البابا لتثبيت الأسقف المنتخب، وقد وافق البابا علي شريطة أن يدفع الأسقف المنتخب ثمانمائة مارك من الدير للبلاط الروماني[٢] .

وهكذا لم تقف المطالب البابوية عند هذا الحد، بل في عام ١٢٥٢م، ناشد إنوسنت الرابع الملك هنري الثالث بضرورة الاستعداد للقيام بحملة لإنقاذ الأراضي المقدسة، ومساندة إخوانه الفرنسيين في المشرق، وبناءً عليه حصل الملك علي تفويض من البابا بجمع العشر لمدة ثلاثة سنوات من رجال الدين والشعب[٣]. وبهذا التفويض تمكن هنري الثالث من جمع ما يزيد علي ستمائة ألف مارك، مما سبب ضررًا بالغًا بالمملكة، وزاد الملك في جمعة للأموال مما أثار استياء وسخرية رجال الدين والعلمانيين علي حد سواء في المملكة وخاصة ان هذه الأموال قد سخرت لخدمة أهداف شخصية غير الحملة الصليبية، التي اتخذها البابا والملك مجرد ستار لتغطية هذه المطالب المالية [٤]. وذلك عندما تجدد النزاع بين البابا وأبناء فريدريك الثاني وأنصاره، انساق هنري الثالث وراء البابا حلمًا في صقليه وأبوليا، التي وعد بهما البابا بأن يكونوا لأبنه أدموند إذا قدم المساعدة له ضد أبناء الإمبراطور الألماني، وبذلك أصبح النذر الصليبي لهنري الثالث مرتبطاً بمستنقع السياسة البابوية في صقلية عام ١٢٥٤م بدلا من الخروج للأراضي المقدسة، التي لم تأت في بؤرة اهتمام البابوية[٥]. وبذلك يمكن القول بأن البابا استطاع بذكائه أن يجذب الملك الانجليزي لصالحه، كي يستطيع فرض ما يشبع رغباته من ضرائب علي الأراضي الانجليزية. وذلك بدون

---

(١) يقصد بذلك الموارد الخاصة بدير أبنغدون، انظر:
متي الباريسي: مصدر سابق، ص١٠٢٦-١٠٢٧؛
Foxe: Op. Cit, Vol. II. Part. 1, p. 441.

(٢) متي الباريسي: مصدر سابق، ص١٠٢٧.

(3) Les Registers D' Innocent IV, Tom. II, P. CCXLV. Cf. also, Robert, M., Pope Innocent IV and Church State Relation, (1243-1254), Requirements For The Degree Of Doctor Of Philosophy, London, January, 1972, p. 174; Tyerman, G: English and The Crusades 1095-1588, (Chicago, 1988), P. 133.

(٤) متي الباريسي: مصدر سابق، ص١٣٤٥؛
Keightley. T, Smith. J. T : Op.Cit, pp.149-150; Bell: Op.Cit, P.178.

(5) Barry. W: The Papal Monarchy From St. Gregory The Great To Boniface VIII (590-1303), (London, 1902, P. 352; Robert, M: Op.Cit, P.178.

معارضة الملك، الذي رأي فيه البابا بأنه بدا يخطو خطي فريدريك الثاني في التمرد علي البابوية في السنوات الأخيرة.

ونستنتج مما سبق، بأن البابوية في روما كانت في شغفٍ دائم للحصول على المزيد من المال بفرضها للضرائب، غير مهتمة بما يصيب الكنائس من خسائر مادية قد تنعكس بدورها على تدهور الأحوال الاقتصادية للدول والرعايا الكاثوليك بالأراضي الخاضعة لنفوذ الكنيسة الرومانية، وأن البابا اهتم بجمع الضرائب بصفة أساسية من مملكة انجلترا، حيث كانت تمثل جزيرة الخيرات للبلاط الروماني، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا وايطاليا متمزقتين، نتيجة للنزاع القائم بين البابا والامبراطور، فكانت البابوية دائما تلجأ إلي انجلترا لسد حاجاتها من المال وكان لشجع الملك الانجليزي هو الأخر دورًا في زيادة الضرائب البابوية علي بلادة، فكان لا يقبل بهذه الضرائب، إلا بعد أن يأخذ وعد من البابوية بمساندة لتحقيق رغباته.

وعليه يمكن القول، بأن الكنيسة الكاثوليكية أثناء حبرية البابا إنوسنت الرابع، قد حادت نسبيًا عن دربها الديني المتمثل في الحفاظ علي العقيدة الكاثوليكية وتقويتها في نفوس رعاياها إلي هاوية أبار السياسة، التي جعلتها تتبع سياسة اقتصادية قاسية في فرضها للضرائب علي رعاياها مما أدي إلي تذمر الشعوب المسيحية، التي رأت في الإجراءات التي اتبعتها الكنيسة ظلمًا لها واضطهادًا لحريتها، مما ترتب علية فقدان البابوية الكثير من مظاهر عظمتها وهيبتها الأولى.

قائمة مصادر ومراجع البحث:

أولاً: المصادر الأجنبية:

- **Annales Monastici, Vol. IV, Ed. By. Henry Richards Luard, (London, 1869).**
- **Chronicles Of England, Scotland And Ireland, Vol. VI, Ed. By, Holinshed's, (London, 1808).**
- **Foxe. J: The Church Historians Of England, Reformation Period. The Acts and Monuments of John Foxe , Vole, II, Part 1, (1854).**
- **Les Registers D' Innocent IV, Publiés ou Analysés D' Apres Les Manuscrits Originaux Du Vatican Et De La Bibliothéque Nathional, by. Élie Berger, Tome, II, (Paris, 1887).**
- **Mathew Paris's: English History, from the year 1235 to 1273,Vol. 2,(Londan,1853).**

ثانيًا: المصادر العربية والمعربة:

- **متي الباريسي: التاريخ الكبير ١٢٣٥ _ ١٢٧٣م، ترجمة: سهيل زكار- الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، جـ٤٠، (دمشق، ٢٠٠١م).**

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

- **Abulafia. D: Fredrick II A Medieval Emperor, (New York, 1988).**
- **AllShorn. L: Stupor Mundi The Life Times Of Frederick II Emperor Of The Romans King Of Sicily And Jerusalem 1194-1250, First Published, (London, 1912).**
- **Arthur, C., Jennings, M., A., The Medieval Church and The Papacy, London, 1909.**

- **Barry. W: The Papal Monarchy From St. Gregory The Great To Boniface VIII (590-1303), (London, 1902).**
- **Bower,A., The History of the Popes, from foundation of the See of Rome to the present time, Vol.VI,(London, M.DCC.LXVI (1766).**
- **David J, An Index and Bibliography of the Castles in England,(Wales, 1983).**
- **David McDowall: An Illustrated History of Britain, Twenty-first impression,(England, 2006).**
- **Davis.H.W.C: England Under The Normans And Angevins 1066-1272, (London, 1930).**
- **Gasquet A: Henry The Third And The Church, (London, 1905).**
- **Keightley. T, Smith. J. T: The History Of England, Vol. I, (Boston, 1840).**
- **Kerr, N, A Guide to Norman Sites in Britain,(London, 1984).**
- **Mary.I. M. Bell, A Short History of The Papacy, Methuen & Co. LTD, (London,1921).**
- **Morgan. A. S: The History Of Parliamentary Taxation in England, (New York, 1911).**
- **Robertson: History Of The Christian Church, Vol. III, (A.D. 1122-1303) (London, 1866).**
- **Sir James Mackintosh: The History Of England From The Earliest Times, To The Year 1588, (Philadelphia, 1834).**
- **Thomas Gaspey: The History Of England From The Text Of Hume and Smollett To The Heign Of George The Third; and Thence Continued To Include The Restoration Of The Empire in France – The Death Of The Duke Of Willin Gton, Vol. 1, (London, 1949).**

- **Tout.: The History of England From The Accession of Henry III To The Death of Edward III (1216-1377), London- New York, 1905.**
- **Tyerman, G: English and The Crusades 1095-1588, (Chicago, 1988).**
- **Whitelock : The Beginning of English Society (The Anglo – Saxon period), (Penguim Books, 1959).**

رابعًا: المراجع العربية والمعربة:

- **بيير كاميللو، بيير مارافال، المجامع المسكونية، ترجمة: السيد بولس عطا الله، ٢٠٠٥.**
- **زينب عبدالمجيد عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية في الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م، الطبعة الأولي، (القاهرة، ١٩٩٦).**
- **ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، المجلد ٣، القسم ٢، ترجمة، السيد الباز العريني،(بيروت،١٩٩٧م).**
- **محمد خميس الزوكه: جغرافية أوروبا الاقليمية، الاسكندرية ١٩٩٧.**
- **موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطي، ترجمة- علي السيد علي، الطبعة الأولي، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥).**
- **هنري بيرين: تاريخ اوروبا في العصور الوسطي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية) ترجمة عطية القوصي، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦).**
- **ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، جـ٤، م٤، الكتاب الخامس المسيحية في عنفوانها (١٠٩٥-١٣٠٠)، (بيروت، د.ت)**

خامسًا: الرسائل العلمية:

- **Robert, M., Pope Innocent IV and Church State Relation, (1243-1254), Requirements For The Degree Of Doctor Of Philosophy, London, January, 1972.**
- **Theilen, M., K., : Opposition To Papal Taxation in England Under Innocent IV, Master Degree,(university of Illinois, 1914).**

- نجلاء حسين محمد: البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ٢٠٠٨.

سادساً: الموسوعات والقواميس:

- **Encyclopedia of Historic places, Ed. by, Courtlandt Candy, David S. Lemberg, Reviser, (New York, 2007).**

سابعاً: المقالات:

- أسامة إبراهيم حسيب: تقييم الضرائب الطارئة في انجلترا في عهد هنري الثالث ١٢١٦-١٢٧٢م، مجلة التاريخ والمستقبل، المنيا، يناير ٢٠١٢م.
- طالب محيبس حسن الوائلي: البرلمان الإنجليزي خلال العصر الوسيط النشأة والتطور، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد الثاني، ٢٠١٠.